خطبة صلاة الجمعة 20/ 8/ 2021 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أثر الدين والقيم في حياة الأمم)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (11) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11، 12].

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به.

والأذن الواعية هي أذن سَمِعَتْ وَعَقَلَتْ مَا سَمِعَتْ، أو هي أُذُنٌ تحفظُ ما سمعَتْ، وتفكر فيه وتعمل بموجِبِه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا؛ ثم بلغها، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ**» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة السادسة والعشرون في سلسلة عنوانها (**توعية**)، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحةً مرة لنُعَمِّم خيرها وننشر فضلها، وخاطئةً أو مخطئةً مرة لنَحْذَر شرها ونترك فعلَها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يحب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: **أثر الدين والقيم في حياة الأمم**

في هذه الخطبة أختصر لكم شيئاً مما جاء في كتاب اسمه (**موت الغرب**) لمؤلفه باتريك جيه بوكانن، وهو سياسي أمريكي عمل مستشاراً لثلاثة رؤساء أمريكيين، وكاتب في عدد من الصحف الأمريكية، وله العديد من المؤلفات، منها هذا الكتاب، الذي ترجمه للعربية محمد التوبة وطبعته دار العبيكان عام 2005، ومفيد لجميع النخب الاطلاع عليه وقراءته.

وأرمي من هذه الخطبة لأمرين:

الأول: أن يعي مَن سافر من أهل الإيمان إلى بلاد الغرب دورَه في التمسك بدينه وشريعته مضافاً لتحصيله العلمي والمادي، ثم دوره في إنقاذ أهل تلك البلاد بنشر الإيمان بينهم، إذ لا سعادة للإنسان إلا باتباع شريعة الله تعالى.

والثاني: أن يعي أهلُ الإيمان بأنّ الطريق التي سلكها القوم مِن هجر الدين وقيم الأسرة والإغراق في المادية والشهوات كانت سبب احتضارهم وموتهم كما يتنبؤون هم، والعاقل من اتعظ بغيره، هذا مع سبقهم العلمي والتقني، ولو جمعوا إلى هذا السَّبق الدينَ والأخلاق لسعدوا وأسعدوا.

يؤكد المؤلف في كتابه بدراسات وأرقام موت الغرب وانتهاءه، وينبّه إلى أن هذا الموت هو في الواقع موتان:

- موت أخلاقي، بسبب السقوط الأخلاقي الذي ألغى كلّ القيم الدينية والتربوية والأسرية والأخلاقية الصحيحة.

- وموت ديموغرافي حيوي، متمثل بالنقص السكاني.

ويظهر بوضوح في السجلات الحكومية اضمحلال القوى البشرية في الغرب وإصابة ما تبقى منها بشيخوخة لا شفاء منها إلا باستقدام المزيد من المهاجرين الشبان، أو بالقيام بثورة حضارية مضادة تعيد القيم الدينية والأخلاقية إلى مكانتها التي كانت من قبل، ويقول إن الموت المقبل مريع ومخيف!!

هذ التراجع الأخلاقي والديموغرافي من صنع أيدينا ومن صناعة أفكارنا، وليس بسبب خارجي، وهو وباء يحول الغرب عموماً وأوروبا بشكل خاص إلى (قارة للعجائز)!!

الغرب يموت إذْ توقفتْ أممه عن التكاثر وبدأت بالانكماش، فهناك سبعة عشر بلداً أوربياً اليوم فيها جنازات دفن أكثر من احتفالات الولادة والبلدان هي: بلجيكا، بلغاريا، كرواتيا، الدنمارك، التشيك، استونيا، ألمانيا، هنغاريا، إيطاليا، لاتافيا، لتوانيا، البرتغال، رومانيا، سلوفاكيا، سلوفينيا، إسبانيا، روسيا، فالأوربيون أنواع تتلاشى كما ذكرت صحيفة التايمز اللندنية.

القصة ليست مجرد تخمينات أو توقعات أو احتمالات إنما هي حقيقة واقعة تصدمك لشدة وضوحها... خاصة عندما تبدأ الأرقام بالحديث!!

فوفقاً لإحصاءات إدارة السكان في الأمم المتحدة عام 2001: هبط (معدل الخصوبة) عند المرأة الأوروبية إلى (1.4طفل) لكل امرأة! علماً أن الحاجة تدعو إلى معدل (2.1 طفل) كحد أدنى لتعويض وفيات السكان الموجودين الآن دون الحديث عن زيادة عددهم...

وإذا بقيت معدلات الخصوبة الحالية على ما هو عليه فإنّ سكان أوروبا البالغ عددهم 728 مليون نسمة بحسب إحصاء عام 2000م سينقص ثلثهم على التقريب في نهاية هذا القرن.

ويقول المؤلف: (إن الأرقام تصبح مخيفة أكثر عند تناولها لتشخيص مرض النقص السكاني على مستوى الدول والأمم بعد 50 عاماً من الآن، إذا لم يتم تدارك الأمر...

ففي ألمانيا سيهبط التعداد السكاني من 82 مليوناً إلى 59 مليون نسمة، وسيشكل عدد المسنين ممن تجاوزوا الـ 65 عاماً أكثر من ثلث السكان، وهؤلاء المسنون سيفوقون بعددهم الأطفال بنسبة أكبر من اثنين لواحد.

أما إيطاليا فستشهد تقلص عدد سكانها البالغ 57 مليوناً إلى 41 مليوناً وستصبح نسبة المسنين 40 % من التعداد العام للسكان.

وفي إسبانيا ستكون نسبة الهبوط 25 %.

ولا تتخلف اليابان كثيراً في اللحاق بمسيرة الموت السكاني فقد هبط معدل المواليد في اليابان إلى النصف مقارنة بعام 1950 وينتظر اليابانيون تناقص أعدادهم من 127 مليون نسمة إلى 104 ملايين عام 2050م.

لكن السؤال المحير!!

لماذا توقفت أمم أوروبا وشعوبها عن إنجاب الأطفال وبدأت تتقبل فكرة اختفائها عن هذه الأرض بمثل هذه اللامبالاة؟!

يقول المؤلف: إن الجواب يكمن في هذه الثقافة الجديدة في الغرب! التي رسخت لموت الأخلاق فصنعت موتهم البيولوجي.

فانهيار القيمة الأساسية الأولى في المجتمع (وهي الأسرة)، وانحسار الأعراف الأخلاقية الدينية التي كانت فيما مضى تشكل سداً في وجه منع الحمل والإجهاض، والعلاقات الجنسية خارج إطار المؤسسة الزوجية، وما يسمى القتل الرحيم والانتحار إضافة إلى تبرير لا بل تشجيع العلاقات الشاذة المنحرفة بين أبناء الجنس الواحد!

كل هذا دمر بشكل تدريجي الخلية المركزية للمجتمع وأساس استمراره ألا وهي الأسرة.

وتبدو لغة الأرقام هنا أكثر هولاً:

فقد ارتفع الرقم السنوي لعمليات الإجهاض في الولايات المتحدة من (6 آلاف) حالة سنوياً عام 1966 إلى (600 ألف) عام 1976 بعد أن سمح بالإجهاض واعتبرت عملية قتل الأجنة حقاً للمرأة يحميه الدستور وبعد عشر سنوات وصل الرقم إلى (مليون ونصف حالة إجهاض) في العام الواحد!

أما نسبة الأطفال غير الشرعيين فهي تبلغ اليوم 25 في المائة من العدد الإجمالي للأطفال الأمريكيين، بينما كانت النسبة في عام 1960 اثنين بالمائة.

ويعيش ثلث أطفال أمريكا في منازل دون أحد الأبوين (إما بدون الأب وهو الغالب وإما بدون الأم).

ووفق مكتب الإحصاء التابع للمفوضية الأوربية فإن 43% من الولادات في الاتحاد الأوربي حصلت خارج نطاق الزواج في العام 2016.

ومؤشر آخر خطير!

فقد بلغ عدد حالات الانتحار بين المراهقين الأمريكيين دون العشرين ثلاثة أضعاف ما كانت عليه عام 1960.

وأصبح الانتحار عندهم أهم قضايا الصحة العامة الوطنية، أما عدد مدمني المخدرات (المدمنين وليس المتعاطين) فقد بلغ ستة وعشرين مليون شخص في الولايات المتحدة وحدها!

وقد تناقصت كثيراً أعداد الشبان والشابات الراغبين في الزواج، في مجتمع يسمح (بالحرية الجنسية الكاملة) ويتيح المساكنة بين الرجل والمرأة دون أي رابط شرعي أو قانوني، ويتقاسم فيه الزوجان ثروتهما في حالة الطلاق، وتضطر المرأة فيه أحياناً للقبول بالمساكنة بدون زواج بسبب حاجتها إلى رجل يقف معها ويحميها ناهيك عن الحاجة البيولوجية.

أما قضية الشذوذ الجنسي وقانون الزواج بين أبناء (الجنس الواحد) فحدث ولا حرج فقد بلغت حداً لم يكن ممكناً مجرد تخيله في السابق!

وأخيراً يخلص المؤلف للقول في (ص: 374) إن هذه إحصاءاتُ مجتمع منحط، وحضارةٌ تحتضر وتموت، وهي الثمار الأولى لثقافة تريد أن تجتث الدين من المجتمع!

وإنّ بلداً مثل هذا لا يمكن أن يكون حراً، فلا وجود للحرية دون فضيلة ولا وجود للفضيلة بغياب الإيمان، ولا يمكن للأخلاق أن تصان من دون دين.

أيها الإخوة:

هذه بعض النقاط المهمة في الكتاب، والكتاب جدير بالقراءة، ويسعني مرة أخرى أن أعيد عليكم هَدَفَيَ هذه الخطبة:

الأول: أن يعي من سافر من أهل الإيمان إلى بلاد الغرب دورَه في التمسك بدينه وشريعته مضافاً لتحصيله العلمي والمادي، ثم دوره في إنقاذ أهل تلك البلاد بنشر الإيمان بينهم، إذ لا سعادة للإنسان إلا باتباع شريعة الله تعالى.

والثاني: أن يعي أهل الإيمان بأن الطريق التي سلكها القوم من هجر الدين وقيم الأسرة والإغراق في المادية والشهوات كانت سبب احتضارهم وموتهم كما يتنبؤون هم، والعاقل من اتعظ بغيره.

وصحيح أن القوم سبقوا في علوم المادة والحياة ولكن ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان.

والحمد لله رب العالمين